القسم الثالث

محصلة وتمهيد

obeikandl.com

obeikandl.com

محصلة وتمهيد

تبين لنا من خلال العرض السابق طبيعة التباين الموجود بين المرأة والرجل ، وكيف أن هذا التباين لا يأتى فقط من الشكل الخاص للأعضاء الجنسية والحوض ، ومن وجود الرحم والحيض والحمل وخلافه . بل ينبع من طبيعة أكثر عمقاً ؛ حيث ينشأ الخلاف بين الجنسين من تكوين الخلايا والأنسجة ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة تفرزها الغدد المختلفة . فالأنثى تحمل طابعاً أنثوياً فى كل خلية من خلايا جسمها ، وفى كل هرمون من هرموناتها ، وفى كل عضو من أعضائها ، وفوق كل شىء فى جهازها العصبى . والرجل أيضاً يحمل طابعاً ذكورياً فى كل هذه النواحى .

وتبين لنا كذلك كيف أن هذه الاختلافات التشريحية والوظيفية تتصاعد حتى تصبح اختلافات فى النفس والعقل والوجدان .

وبناء على هذه الاختلافات العميقة والمتشعبة بين طبيعة المرأة وطبيعة الرجل ، كان منطقياً أن ينشأ اختلاف حاسم بينهما فى المهمة والأهداف ، حتى يواجه كل منهما مطالب الحياة مواجهة عادلة حسب إمكانياته وقدراته .

والمرأة والرجل هما شقا الإنسانية . والمساواة بينهما فى القيمة الإنسانية المشتركة مطلب عادل ومنطقى . أما المساواة الآلية المزعومة ، فدعوة فارغة ليس لها أساس من الواقع إلا الحذلقة والتشدق . هل يريد هؤلاء المدّعون أن يغيروا طبائع الأشياء ؛ فيحولوا الرجل إلى امرأة ، والمرأة إلى رجل ؟! أم هل يريدون أن يحولوا كلاً منهما إلى شىء آخر متشابه ومتماثل فى كل شىء ؟! إن أمراً من هذا القبيل لهو خطر كبير لو حدث – ولن يحدث – لأدى بالبشرية إلى التعاسة والضياع . يؤدى بها إلى التعاسة والضياع ؛ لأن التنافر الطبيعى بين الأقطاب المتماثلة سيبرز وسيستمر ، وسيقضى على معانى التآلف والانسجام والحب ؛ فالرجل لا يريد أن يقضى حياته مع رجل مثله ، والمرأة لا ترضى أن ترتبط بامرأة مثلها ، تشاركها إيجابياتهاوسلبياتها مشاركة الآلية والتماثل .

إن القطب السالب لاينجذب إلا إلى قطب موجب، والقطب الموجب لا ينسجم إلا مع قطب سالب . فلو ساوينا بين الجنسين مساواة التماثل المطلق فى الطبائع والسمات ؛ فلن يلتقيا أبداً وستزداد الهوة بينهما عمقاً واتساعاً ووحشية . أما التآلف والانسجام والاحتواء ، فأمور لن تتأتى إلا إذا كانت منحنيات المرأة تقابل نتوءات الرجل كأنها مخلوقة على قدها لتتداخل معها وتستقر فيها . إن أملنا المنشود فى تآلف الرجل والمرأة ، لن يحدث إلا إذا كان كل تجويف فى المرأة يقابله بروز فى الرجل ، وكل تجويف فى الرجل يقابله بروز فى المرأة* .

إن الذين ينادون بالمساواة الآلية ، القائمة على إزالة الفوارق الأساسية بين الجنسين ، يجهلون تماماً طبيعة الأشياء ؛ ذلك أن السمات التشريحية وقوانين وظائف الأعضاء وما يتفرع عنهمامن نواح أخرى – أمور محددة ومنضبطة تماماً مثل قوانين الفلك ، بحيث لا يكون فى وسعنا إحداث أى تغيير أو تعديل فيها بمجردالأمنيات الساذجة التى تجهل طبيعة الحياة والأشياء . ومن ثم يجب علينا أن نتقبلها على ما هى عليه بقبول حسن . وعلى كل من الجنسين أن يقوم بتنمية قدراته ومواهبه وفقاً لطبيعته الفطرية الخاصة ، وأن يبتعد كل منهما عن محاولة التشبه بالآخر وتقليده .

إن تكوين المرأة البدنى والنفسى والعقلى ، بكل ما يحويه من مرونة فى الملمس ، ورقة فى المشاعر ، وجيشان فى العاطفة ، وانفعال فى الوجدان .. هو الاستعداد الحقيقى لأنبل المهام وأهمها على الإطلاق : مهمة بناء الإنسان .

وتكوين الرجل البدنى والنفسى والعقلى ، بكل ما يحويه من صلابة فى العضلات ، وتحكم فى العاطفة ، ومنطقية فى التفكير .. هو الاستعداد القادر على صراع البقاء وتحدى قوى الطبيعة ، والملائم لتنظيم مجريات الحكم وقوانين المعيشة والاقتصاد ؛ من أجل إشباع الحاجات والرغبات ، وحماية الأسرة والمجتمع من أى خطر أو عدوان .

---

* لا أقصد هنا المنحنيات والنتوءات الجسمية فحسب ، بل أقصد أيضاً المنحنيات والنتوءات النفسية والعقلية والاجتماعية ... والأمر بالمثل بالنسبة للمقصود من لفظتى التجويف والبروز .

وبقدر ما نرفض أى شكل من أشكال المساواة الآلية بين الجنسين ؛ نؤمن ونطالب بالمساواة بينهما فى القيمة الإنسانية ، وما يتفرع عنها من وجوه يجب التسوية فيها بينهما؛ إذ أن كلاً منهما من طينة واحدة ومن أصل واحد. وكثيراً ما ذكرنا فى هذا الكتاب أننا لا نرتضى أى لون من ألوان المفاضلة أو المفاخرة التى قد يعقدها الرجل والمرأة كل ضد الآخر .

وأخيراً ، فهذه المحصلة هى التمهيد المنطقى الواجب لبيان نظرة الإسلام إلى الجنسين ، ولمعرفة كيف سوّى بينهما فى الأمورالتى تتصل بالإنسان من حيث هو إنسان ، ولمعرفة كيف فرق بينهما فى بعض النواحى التى تنشأ من تبيان طبائعهما ، واختلاف وظائفهما ؛ لتحقيق صالحهما ، وصالح كل من الأسرة والمجتمع والحضارة .

* * *

obeikandl.com